وَبَدَا لَهُمْ سَيِّـَٔاتُ مَا عَمِلُوا۟ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٣٣﴾ وَقِيلَ ٱلْيَوْمَ نَنسَىٰكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا وَمَأْوَىٰكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّٰصِرِينَ ﴿٣٤﴾ ذَٰلِكُم بِأَنَّكُمُ ٱتَّخَذْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا ۚ فَٱلْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٣٥﴾ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٦﴾ وَلَهُ ٱلْكِبْرِيَآءُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٧﴾

سُورَةُ الْأَحْقَافِ

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

حمٓ ﴿١﴾ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ﴿٢﴾ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ هَٰذَآ أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَٰفِلُونَ ﴿٥﴾

[٣٣] ثم بين جل وعلا ما ترتب علىٰ أقوال هؤلاء المشركين الباطلة؛ حيث ظهر لهم ما عملوا من الشرك والتكذيب بالبعث والنشور، ونزل بهم العذاب الذين كانوا يستهزؤون به ويستعجلون مجيئه.

[٣٤] وفي يوم القيامة يقال لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التأنيب والزجر: اليوم نهملكم ونترككم في جهنم للعذاب، كما تركتم الإيمان بالله في الدنيا والعمل لهذا اليوم، وكنتم تصرون علىٰ الكفر والشرك والعناد؛ فمسكنكم الذي تأوون إليه هو نار جهنم، وليس لكم في هذا اليوم من ناصر ينصركم ليخفف عنكم عذاب الله.

وعبر بالنسيان مشاكلة لفعلهم؛ وإلا فالله لا تغيب عنه غائبة، ولا تخفىٰ عليه خافية في الأرض ولا في السماء، يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، والنسيان ممتنع بالنسبة لله: هو هنا الترك الدائم للكفار في العذاب.

[٣٥] ثم بين جل وعلا الأسباب التي أدت بهؤلاء المشركين إلىٰ هذا المصير السيِّئ؛ فأخبر أن ذلكم العذاب والنكال الذي أصابهم، وخلودهم في النار؛ بسبب أنهم اتخذوا القرآن للاستهزاء والسخرية، وخدعتْهُم زينة الحياة الدنيا وزخرفها الزائل؛ فاليوم لا يُخرجون من النار أبدًا، ولا يقبل منهم معذرة أو توبة.

[٣٦] ثم ختم جل وعلا السورة مخبرًا أن له وحده الحمد والعظمة والثناء الكامل علىٰ نعمه التي لا تحصىٰ، وله الحمد علىٰ ربوبيته؛ فهو رب السماوات ورب الأرض وخالقهما ومدبرهما، ورب الخلائق أجمعين؛ حيث خلقهم ورباهم وأنعم عليهم بالنعم الظاهرة الباطنة.

[٣٧] وأخبر سبحانه أن له وحده الكبرياء والعظمة والسلطان والجلال في السماوات والأرض، وهو العزيز الذي لا يغالب، والحكيم في أقوله وأفعاله، فله الحمد المطلق.

سورة الأحقاف

سورة الأحقاف مكيّة وآياتها خمس وثلاثون آية.

[١] سبق الكلام علىٰ الحروف المقطعة في أول سورة البقرة.

[٢] بدأ جل وعلا السورة بالإخبار أن هذا القرآن العظيم الحامل للهدىٰ والنور، والجامع لكل ما هو حسن وصدق؛ منزل من عند الله العزيز الذي لا يغالبه أحد، القاهر لجميع خلقه، الحكيم في تصريفه لشؤونهم.

[٣] واعلموا أيها الناس أن الله جل وعلا ما خلق السماوات والأرض وما بينهما إلا بالحق الذي اقتضته قدرته وإرادته، والأجل الذي حدده وهو يوم القيامة، يوم تبدل الأرض والسماوات، ولكن الذين جحدوا آيات الله معرضون عن مواعظ القرآن وتوجيهاته، ولا يتفكرون في الآخرة ولا فيما خلقوا من أجله وهو عبادة الله وحده.

[٤] وقل يانبي الله لهؤلاء المشركين علىٰ سبيل التوبيخ والتأنيب: أرأيتم هذه الآلهة وهذه الأصنام والأوثان وغيرها من المخلوقات التي تعبدونها من دون الله، أروني هل خلقوا شيئًا من المخلوقات؟، أم أن لهم شراكة مع الله في خلق السماوات؟ فإذا لم يخلقوا شيئًا، ولم يكن لهم شراكة في شيء، إذًا كيف تعبدون من دون الله ما لا يضر ولا ينفع؟ أليس هذا هو الضلال والفساد المبين؟، ثم هاتوا أيها المشركون كتابًا من عند الله نزل قبل هذا القرآن، أو بقيَّة من علم تؤيد عملكم وتدل علىٰ صحة ما أنتم عليه من الشرك والضلال، إن كنتم صادقين فيما تزعمون.

[٥] واعلموا أيها الناس أنه لا يوجد أحد أشد ضلالًا وجهلًا من هؤلاء المشركين الذين يعبدون من دون الله هذه الأصنام وهذه الأوثان التي لا تجيب لهم دعاءً، ولا تسمع لهم كلامًا، ولا تعقل لهم نداءً، ولو جلس يخاطبها إلىٰ يوم القيامة، لأن هذه الأصنام والأوثان غافلة عن عبادة من يعبدها؛ بل لا تدرك شيئًا، ولا تحس بمن حولها.

وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَٰفِرِينَ ﴿٦﴾ وَإِذَا
تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا
سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ
لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى
وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ
وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠
إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ
وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ
إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟
لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ
فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ
إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ
ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا
ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾
أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

[٦] ثم بين جل وعلا ما يحدث بين العابدين والمعبودين يوم القيامة؛ فأخبر بأن الناس إذا حشروا يوم القيامة للحساب؛ كانت الأولياء والأصنام والأوثان أعداءً لعابديها؛ حيث يتبرؤون ممن عبدوهم، وحينها يلعن بعضهم بعضًا، ويتبرأ بعضهم من بعض.

[٧] ثم أخبر جل وعلا عن مشركي قريش أنهم إذا تتلىٰ عليهم آيات القرآن الواضحة الدلالة علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته؛ قالوا: هذا سحْرٌ ظاهرٌ بيِّن.

[٨] ثم أخبر جل وعلا أن من أقوال هؤلاء المشركين أنهم يقولون: أن محمدًا اخترع وألَّفَ واختلق هذا القرآن من عند نفسه، فقل لهم يانبي الله: إن اختلقته من قبل نفسي فالله قادرٌ علىٰ أن يعذبني، وحينها لا تملكون أن تدفعوا عني شيئًا من العذاب، واعلموا أن الله تعالىٰ عالمٌ بما تخوضون فيه من التكذيب والمخاصمة بالباطل، وكفىٰ بالله شهيدًا عليَّ وعليكم، وحَكَمًا بيني وبينكم، وهو الغفور لمن تاب من الشرك وآمن برسالتي وصدق بالقرآن، الرحيم بعباده المؤمنين.

[٩] ثم أمر جل وعلا نبيه محمدًا ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: ما أنا بأول رسولٍ يُبعَث في قومه، فقد بعث الله قبلي كثيرًا من الرسل لأقوامهم، وأنزل عليهم الكتب، فَلِمَ تستغربون دعوتي وتستنكرون رسالتي؟! وما أنا إلا بشرٌ مثلكم، لا أعلم الغيب، ولا أعلم ما يكون في المستقبل، ولا أدري ماذا سيُفعل بي ولا بكم، ما إنا إلا رسولٌ من عند الله أتبع ما يوحيه الله إليَّ، ولا آتي بشيء من عندي، وليس عليَّ حسابكم، فما عليَّ إلا البلاغ والنذارة.

[١٠] ومرة أخرىٰ يأمر جل وعلا نبيه ﷺ أن يقول لهؤلاء المشركين: أخبروني لو كان هذا القرآن من عند الله وكفرتم به، ثم شهد بعض علماء بني إسرائيل كعبدالله بن سلام أنه حق، وأنه يحمل من التوحيد والتحذير كما في الكتب التي أنزلت علىٰ موسىٰ وغيره من الأنبياء، ثم إنه بعد القناعة آمن بهذا القرآن وعمل بما جاء فيه، أما أنتم فجحدتم ذلك استكبارًا وعلوًّا، أليس هذا من أعظم الظلم وأشد الكفر؟ واعلموا أن الله لا يوفِّق القوم الذين ظلموا أنفسهم بالاستكبار عن الحق بعد معرفته.

[١١] وقال الجاحدون لنبوة محمد ﷺ من رؤساء قريش: لو كان الإيمان بهذا القرآن وهذا الدين خيرًا ما سبقنا إليه هؤلاء الفقراء، قالوا ذلك استكبارًا بأنهم هم العظماء الأغنياء، وأما أصحاب محمد ﷺ فهم الضعفاء الفقراء؛ وحيث إنهم لم يهتدوا بالقرآن استكبارًا، ولم ينتفعوا بما فيه من الحق؛ ذمُّوه وطعنوا فيه، وقالوا: إن هذا القرآن كذب، وما هو إلا أساطير الأولين.

[١٢] يخبر جل وعلا أنه قبل نزول هذا القرآن، أنزل التوراة علىٰ موسىٰ عليه السلام فيها الهدىٰ والنور؛ يقتدي بها بنو إسرائيل، ثم جاء هذا القرآن مصدِّقًا للتوراة ولما قبله من الكتب المنزلة من عند الله، وموافقًا لها؛ وأنزله بلسان عربي، لينذر به النبيُّ صلىٰ الله عليه وآله وسلم الذينَ ظلموا أنفسهم بالشرك والمعاصي، ويبشر به المحسنين عبادةَ ربهم، والمحسنين إلىٰ عباد الله بالفوز والنجاة والفلاح في الدارين، نسأل الله الكريم من فضله العظيم.

[١٣] واعلموا أيها الناس أن الذين قالوا: ربنا الله ثم استقاموا علىٰ دينه وشرعه، أي: أنهم جمعوا بين التوحيد الخالص والأعمال الصالحة واستمروا عليها؛ فهؤلاء لا خوف عليهم من فزع يوم القيامة وأهواله، ولا هم يحزنون علىٰ ما خلَّفوا وراءهم بعد مماتهم من حظوظ الدنيا.

وهذا فيه ثناء علىٰ المؤمنين المخلصين الذين نبذوا الكفر والتعلق بما عليه الأسلاف الضالون.

[١٤] ثم بين جل وعلا أن هؤلاء الذين آمنوا بالله ثم استقاموا علىٰ دينه وشرعه هم أصحاب الجنة ماكثين فيها أبد الآبدين؛ برحمة الله تعالىٰ لهم، وبما قدَّموا من أعمال صالحة في الدنيا.

وقد قارن الشيخ محمد خير حجازي - مدرس التفسير بالحرم المكي - بين هذه الآية وبين قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُوا۟ تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [فصلت:٣٠]، أي: أن الملائكة تبشرهم أن لا خوف عليهم ولا هم يحزنون، فقال: إن آية الأحقاف أبلغ في البشارة من آية فصلت؛ لأن الله جل وعلا هو الذي بشر في آية الأحقاف، أما في آية فصلت فالملائكة هي التي بشرت.

وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا ۖ حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ ۖ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾ وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِّمَّا عَمِلُوا ۖ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُم بِهَا ۖ فَالْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾

[١٥] يأمر جل وعلا الإنسان بالإحسان إلىٰ والديه وأن يقدم إليهما كل ما يؤدِّي إلىٰ برهما وإكرامهما، فقد حملته أمه وعانت في حمله وفي ولادته، وكانت مدة حمله وفطامه ثلاثين شهرًا؛ وفي ذكر هذه المشاق دليل علىٰ أن حق الأم أعظم من حق الأب، فإذا بلغ هذا الإنسان تمام اكتمال قوته وعقله وبلغ أربعين سنة قال: ربِّ ألهمني وأعني أن أشكر نعمتك التي أنعمتها علي وعلىٰ والديَّ، ووفقني للعمل الصالح الذي ترضاه، وأصلح لي في ذريتي؛ فإني تبت إليك توبة صادقة نصوحًا، وإني من المستسلمين لك والممتثلين لأمرك ونهيك.

وقد ذكرنا في آية سابقة شبيهة بهذه الآية أن الله كرر وصيته للأبناء بآبائهم في عشر مواضع تقريبًا، ولم يوصِ الآباء بأبنائهم إلا في تقسيم التركة في سورة النساء، وعلل ذلك أستاذنا في التفسير الشيخ محمد الأمين الشنقيطي صاحب أضواء البيان فقال: لأن بر الأبناء بآبائهم تكلف وتطوع وليس مثل رعاية وعناية الآباء بأبنائهم الذي هو جبلة وطبيعة طبعوا عليها، ثم أضاف الشيخ: أن الآباء هم السبب في وجود الأبناء، وأن الله جلَّ في علاه هو مسببُ الأسباب، وهو الخالق سبحانه وتعالىٰ، وأن من ضيع وأهمل حق السبب جدير بأن يضيع ويهمل حق المسبب وهو الله تعالىٰ.

وقال: قوله: (كَرْهًا) بفتح الكاف كما في قراءة نافع وابن كثير، تعني: التعب والمعاناة والألم الذي تعانيه الأم، ولا تعني: أنه كرْه، أي: بغض، بخلاف قوله: (كُرْهًا)، بضم الكاف كما في قراءة عاصم وحمزة والكسائي، التي تعني: الأذىٰ والبغض الذي يمرُّ بها، وانظر قول الأب في آخر الآية: ﴿وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي ۖ إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾؛ فالوالد حريص علىٰ صلاح أولاده من قبل وجودهم؛ فهو الذي اختار لهم الأم، وهو الذي اهتم وبذل جهده وتفكيره بتنشئتهم تنشئة صالحة، وهذا يعني أنه لا يمكن برّه ومكافأته إلا لمن وفقه الله وأصلحه من ذريته.

[١٦] ثم أخبر جل وعلا أن أولئك الأبناء البررة الذين ذُكرت أوصافهم نتقبل منهم أحسنَ طاعاتهم وأعمالهم الصالحة، ونمحو ونتجاوز عن سيئاتهم، فلا نؤاخذهم بها، ولا نعاقبهم عليها، وهم في عداد أهل الجنة الفائزين، وهذا وعْدٌ صادقٌ من الله، كانوا يوعدون به في الدنيا، فاليوم يوَفّون ما وعدوا به، ومن أصدق من الله حديثًا.

[١٧] أما ذلك الابن العاق الفاجر الذي قال لوالديه - بعد أن دعواه إلىٰ توحيد الله والإيمان باليوم الآخر -: أفٍّ لكما، أي: تضجُّرًا منكما أتعداناني أن أُخرَجَ من قبري؟! وقد سبقت القرون الكثيرة من قبلي فماتوا ولم يُبعَث منهم أحد؛ فيستغيث الوالدان بالله لهداية هذا الابن، ويقولان له: ويحك، آمن أيها الولد بالبعث والنشور، فإن وعد الله بالبعث والنشور حقٌّ وصدقٌ، فيجيبهما قائلًا: ما هذا الكلام الذي تقولانه إلا من تخاريف الأولين، وأباطيلهم التي سطروها في كتبهم.

[١٨] ثم بين جل وعلا أن أولئك المعاندين المكذبين بالبعث وجَبَ عليهم العذاب، في عداد أمم مضت من قبلهم من الجن والإنس ساروا علىٰ طريقهم، واقتفوا أثرهم، إنهم كانوا - بشركهم وتكذيبهم - خاسرين لأنفسهم أعظم الخسارة.

[١٩] ثم بين جل وعلا أن لكل فريق من الفريقين - المؤمنين والكفار - منازل ومراتب عند الله يوم القيامة، حسْب عمل كلٍّ منهما، فللمؤمنين درجات النعيم، وللكافرين دركات الجحيم، وليوفيهم الله جزاء أعمالهم، وهم لا يُظلَمون بنقص حسنة، ولا بزيادة سيئة.

[٢٠] واذكروا أيها الناس يوم أن يُعرض الذين كفروا علىٰ نار جهنم ليدخلوها، يقال لهم - توبيخًا وتبكيتًا وتقريعًا -: أذهبتم طيِّباتكم باشتغالكم بملذاتكم في الحياة الدنيا الزائلة، واغتررتُم بلذَّاتها، ورضيتم بشهواتها، وقد جاء يوم الحساب الذي كنتم تكذبون به وتجحدونه؛ فاليوم تُجزَوْنَ عذابَ الذلِّ والخزي والعار والفضيحة؛ بسبب استكباركم علىٰ توحيد ربكم وطاعته، وبتجبّركم وطغيانكم في الأرض بغير الحق، وبِفسْقكم وخروجكم عن طاعة ربكم.

* وَٱذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُۥ بِٱلْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ
مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦٓ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ
عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾ قَالُوٓا۟ أَجِئْتَنَا لِتَأْفِكَنَا عَنْ ءَالِهَتِنَا فَأْتِنَا
بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرْسِلْتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّىٓ أَرَىٰكُمْ قَوْمًا تَجْهَلُونَ ﴿٢٣﴾ فَلَمَّا
رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ
بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ
شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى
ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾ وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ
وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ
وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ
ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا
مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾
فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةً ۖ
بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ ۚ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾

[٢١] واذكر يانبي الله لقومك صبر ومعاناة نبي الله هودٍ عليه السلام الذي هو أخو عاد في النسب لا في الدين؛ لعلهم يعتبرون ويتعظون؛ حيث أنذر قومه أن تحل بهم عقوبة الله وهم في منازلهم الكائنة في الأحقاف بسبب شركهم وكفرهم وعنادهم، ثم أمره أن يخبر قومه أن جميع الأنبياء الذين جاءوا قبل هود وبعده قد أنذروا أقوامهم أن لا يشركوا مع الله شيئًا في عبادتهم له؛ وإني أحذركم كما حذروا أقوامهم أن لا تقعوا في الشرك؛ لأني أخاف عليكم عذابًا عظيمًا يوم القيامة.

والأحقاف تقع في الربع الخالي من جزيرة العرب بين نجران والبلاد العربية التي علىٰ ساحل البحر؛ اليمن وعمان والإمارات العربية، والأحقاف عبارة عن رمال يجعل الله الرياح تَجْمَعُهَا متعرجة كالجبال، وقوم هود هم الذين قال الله عنهم: ﴿ٱلَّتِى لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِى ٱلْبِلَٰدِ﴾ [الفجر:٨]، أي: أنها أمه ذات حضارة فريدة بلغت مكانة لم يبلغ مثلها أحد من الأمم الماضية، ثم اغترُّوا بما هم عليه من العلو والرقي حتىٰ قالوا ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت:١٥].

[٢٢] فأجابه قومه قائلين: هل جئت إلينا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟! فأْتِنا بما تعدنا من العذاب العظيم إن كنت من الصادقين فيما تعدنا وتهددنا به.

[٢٣] فقال لهم هودٌ عليه السلام: إن العلمَ بوقت مجيء العذاب عندَ الله لا عندي، أمَّا أنا فعليَّ إبلاغكم ما أُرسلتُ به إليكم من دعوتكم إلىٰ التوحيد، ونهيِكُم عن الشرك والتنديد، ولكني أراكم - بتكذيبكم وباستعجالكم العذاب - قومًا تجهلون ما ينفعكم في الدنيا والآخرة.

[٢٤] ثم أخبر جل وعلا بالنهاية التي كان عليها قوم هود بعد أن استعجلوا العذاب؛ حيث إن الله أرسل لهم سحابة سوداء فلما رأوها قالوا: هذا عارض يحمل لنا المطر النافع وهو متوجه إلىٰ أوديتنا؛ فقال لهم هود: هذا ليس مطرًا أو غيثًا كما ظننتم؛ بل هو العذاب الذي استعجلتموه، وهو عبارة عن ريح فيها عذاب مؤلم موجع.

[٢٥] ثم بين سبحانه أن هذه الريح تدمر كل شيء أتت عليه قابل للدمار بأمر الله، وكانت النتيجة أن استمرت الريح عليهم سبع ليال وثمانية أيام حسومًا، وأصبحوا بعد ذلك لا يرىٰ إلا مساكنهم التي كانوا يسكنون بها، وهكذا تم استئصالهم؛ بل انطمست واندفنت في التراب حضارتهم وآثارهم، واعلموا أيها الناس أن مثل هذا العذاب هو جزاء المجرمين بسبب إجرامهم وطغيانهم ولعذاب الآخرة أشد لو كانوا يعلمون.

[٢٦] يخبر جل وعلا عن الحضارة التي وصلت إليها عاد وهو ينطبق علىٰ الحضارة التي وصل إليها الغرب وأمريكا الآن، ثم أخبر سبحانه أنه جعل لهم سمعًا يسمعون به، وأبصارًا يبصرون بها، وأفئدة يعقلون بها، أي: جعل عندهم القدرة الكاملة علىٰ الفهم والهدىٰ، ولكنهم غرتهم قوتهم وحضارتهم فلم يشغلوا عقولهم ليتوصلوا بهذه الآيات العظيمة التي وهبها الله لهم إلىٰ توحيد الله ومعرفة مراده من خلقه، ثم بين جل في علاه أن ما أصابهم من دمار كان بسبب جحودهم لآيات الله القرآنية والكونية، ولهذا نزل بهم عذاب الله الذي كانوا يستهزؤون به ويستعجلونه.

[٢٧] ثم خاطب جل وعلا أهل مكة مخوفًا لهم، فقال: ولقد أهلكنا ما حول دياركم من القرىٰ كعاد وثمود غيرهم، لما كذبوا رسلَهم، ولقد نوَّعْنا لهم الآيات الواضحات الدالات علىٰ وحدانية الله وكمال قدرته؛ لعلهم يرجعون عن كفرهم إلىٰ الإيمان بالله وتوحيده.

[٢٨] فلما جاءهم العذاب وحلَّ بهم الهلاك، هل نفعتهم آلهتهم التي كانوا يعبدونها من دون الله ويتقربون إليها؟! ؛ بل الحقيقة أنها غابت عنهم ولم تُجِبْهم أو تدفع عنهم، وكان سبب ضياعهم وهلاكهم إفكهم وافتراؤهم واتخاذهم هذه الآلهة - التي لا تضر ولا تنفع - أربابًا من دون الله، فهذه نهاية كذبهم وافترائهم، وعبادتهم غير الله.

وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا
حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ
﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ
مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ
﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن
ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ
فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ
فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْۦِىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ
إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ
أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا۟ ٱلْعَذَابَ بِمَا
كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ
وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا
سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۢ بَلَٰغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾

سورة محمد

[٢٩] واذكر يانبي الله يوم أن بعثنا إليك طائفة من الجن يستمعون القرآن، عندما كنت تصلي وأنت عائدٌ من الطائف إلىٰ مكة، فلما حضروا وأنت واقف تصلي وتقرأ القرآن قال بعضهم لبعض: أنصتوا لكي نفهم هذا الحديث العجيب وهو القرآن، فلما فرغت من صلاتك، وقد أثر فيهم ما سمعوا من القرآن انصرفوا إلىٰ جماعاتهم منذرين ومحذرين لهم من عقاب الله إن لم يؤمنوا به. وهذه الآية تدل علىٰ أن النبي ﷺ رسول إلىٰ الإنس والجن، وأن الجن مثل الإنس لهم ثوابٌ وعقابٌ وتكليفٌ، كما قال تعالىٰ: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾[الأنعام:١٣٢].

[٣٠] وهؤلاء الجن الذين سمعوا القرآن من النبي ﷺ؛ أسلموا وآمنوا وصدقوا به، ثم ذهبوا إلىٰ قومهم يدعونهم إلىٰ الإسلام وإلىٰ الإيمان، وقالوا: يا قومنا إنا سمعنا كتابًا أنزل من بعد موسىٰ، وهذا الكتاب مصدق لما قبله من الكتب التي أنزلها الله علىٰ رسله، ثم إن هذا الكتاب يهدي إلىٰ الدين الحق وإلىٰ الصراط المستقيم.

وقوله: ﴿مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ﴾، قال عطاء: كانوا يهودًا، أي: أن هؤلاء النفر من الجن كانوا من اليهود، ولذلك لم يذكروا عيسىٰ عليه السلام؛ مع أنه هو الذي كان قبل الرسول ﷺ؛ لأن موسىٰ عليه السلام أرسل إلىٰ اليهود، لذلك فإنهم لا يعترفون بعيسىٰ عليه السلام كسائر اليهود.

[٣١] ثم استمروا في دعوة قومهم إلىٰ التوحيد قائلين: يا قومنا استجيبوا لرسول الله صلىٰ الله عليه وآله وسلم، وصدقوا بما جاءكم به؛ فإن ذلك سببٌ لمغفرة ذنوبكم، ونجاتكم من العذاب الأليم الموجع.

[٣٢] واعلموا ياقومنا أن من لم يُجب رسول الله ﷺ، ولم يؤمن ويصدق بما جاء به؛ فإنه ليس له قدرةٌ علىٰ الهرب من الله، ولن يفوت الله أو يسبقه، وليس له من دون الله أنصار وأعوان يمنعون عنه عذاب الله وعقابه، ومن لا يجب داعي الله فهو في ضلالٍ بين واضح، وغوايةٍ ظاهرة.

[٣٣] ثم لام جل وعلا الكفار علىٰ إنكارهم للبعث؛ فقال: ألم يعلم هؤلاء الكفار أن الله الذي أنشأ السماوات والأرض علىٰ غير مثال سابق، ولم يعجز أو يتعب بخلقهن، ألم يعلموا أن الله قادر علىٰ إحياء الموتىٰ الذين خلقهم أوَّلًا؟ فكان الجواب من الله جل في علاه: بلىٰ، إنه سبحانه علىٰ كل شيء قدير لا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء.

[٣٤] ثم كرر جل وعلا تذكير الناس بأحوال الكفار يوم القيامة؛ فقال: ويوم يُعرض الذين كفروا علىٰ نار جهنم ليدخلوها، يقال لهم - توبيخًا وتبكيتًا وتقريعًا -: أليس هذا العذاب بحقّ؟! فيجيبون معترفين بذنوبهم قائلين: بلىٰ وربنا إنه الحق، فيقال لهم: ذوقوا العذاب بسبب كفركم وجحودكم في الدنيا.

[٣٥] ثم ختم جل وعلا السورة بحث نبيه ﷺ علىٰ الصبر علىٰ ما يصيبه من أذًىٰ أو سخرية من المعاندين الظالمين؛ حيث أمره أن يصبر كما صبر أولو العزم والثبات من الرسل وهم: نوح والخليل إبراهيم وموسىٰ وعيسىٰ ومحمد صلىٰ الله عليهم جميعًا، وقد جمعهم أحد طلبة العلم في البيت التالي:

أولو العزم نوح والخليل ابن آزر ... وموسىٰ وعيسىٰ والحبيب محمد

ثم أمره سبحانه أن لا يستعجل العذاب لقومه لأنه آتيهم لا شك ولا ريب في ذلك، وعندما يرون هذا العذاب ويحل بهم عذاب جهنم في الآخرة فكأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا ساعة من نهار من شدة ما يلقون من العذاب، واعلموا أن هذا القرآن الذي أنذركم به محمد ﷺ بلاغ كافٍ في وعظكم وإنذاركم، ثم ذكر سبحانه أن الهلاك والبوار والخسران علىٰ الخارجين عن طاعة الله وأمره.